الحضارة

واختلاف الطبائع

ما هي الحضارة ؟ لقد اختلف الكتّاب في تعريفها. فإذا قيل العمران وجدنا أن العمران قد يكون موجوداً من غير ذوق وتمييز ، والحضارة لا تكون إلاّ بهما . وإذا قيل العلم وجدنا أن العلم قد يكون تحصيلاً من غير تفكير ومن غير فهم كثير . وإذا قيل حسن الأخلاق وجدنا أن حسن الأخلاق قد يكون موجوداً في الأمم التي على الفطرة والتي لا تعرف الحضارة . وإذا قيل الذكاء والفهم والحكمة وجدنا هذه الصفات عند بعض قبائل البدو الذين لا يمتون إلى الحضارة بسبب . وإذا قيل إن الحضارة في الثراء والبذخ وجدنا الثراء مدخراً ومكنوزاً عند من لا يعرف الحضارة . وإذا قيل إن الحضارة في انتهاز فرص اللذات والمسرات وجدنا أن الهمج من الناس قد ينهمكون في اللذات كما تفعل أصناف كثيرة من الناس . ومن أجل ذلك كان تعريف الحضارة من أصعب الأمور . ولو أن امرأ يجري في أفواه الناس كل يوم . فالترف وحده لا يتم الحضارة ويكوّنها ، ولا العلم وحده ولا الذكاء والفهم وحدهما ولا طيب الخلق وحده ، ولا انتهاز فرص المسرات ولا الابتكار في الفنون كالشعر والنحت والتصوير فنون كانت راقية قبل الحضارة .

* * *

لقد خلف لنا ثيوكيديدس المؤرخ الأثيني في كتابه المسمى حرب البلوبونيز خطبة بركليز السياسي الأثيني وهو يؤبن قتلى حرب البلوبونيز . وفي هذه الخطبة يصف بركليز صفات العظمة في الحضارة الأثينية ، أو الصفات التي يرى أنها جديرة أن تكون مقياساً للحضارة وانها أحق بالرعاية والتنمية . وقد اقتبس كثير من المؤرخين جملاً من تلك الخطبة التي يعدها المؤرخون من أعظم الخطب سواء أكان بركليز واضعها بالنص، أم صاغ ثيوكيديدس في كلامه ما علق بذهنه منها . ففيها نرى التسامح بين أبناء الأمة الواحدة والعدل في صيانة الحقوق ، والثقافة المؤسسة على الفهم والعمران المبني على الذوق والتمييز . والاستعداد للدفاع عن الدولة من غير خشونة أو مغالاة تقضي على الجوانب الأخرى من الحياة ، ونرى الحرية

اللازمة لاختلاف الطبائع والامزجة ، تلك الحرية التي تمنع من صب الناس في قالب واحد وقسرهم على رأي واحد ومسلك واحد ونظرية واحدة ونظر واحد الى الحياة . وقد نظر الكتّاب في الحضارات المختلفة فوجدوا ان الحضارة تكون أعظم ازدهاراً وابتكاراً وأطول عمراً وأكثر تجدداً إذا كان فيها نصيب موفور من تلك الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والامزجة ، وتكون أقصر عمراً وأقل ثمرة وازدهاراً اذا فقدت تلك الحرية ، وحاولت الدولة صب الناس في قالب واحد وقهرهم على أن تكون طبائعهم وأمزجتهم متشابهة .

وقد قال بعض الكتّاب فذكر ان حرية الطبائع والامزجه خصيصاً اختصت بها الحضارة الاوربية دون غيرها من الحضارات ولا سيما الحضارات الشرقية . ومن أجل ذلك بادت الحضارات الشرقية ولم تبد الحضارة الاوربية . وقد رأينا ان بعض الحضارات الشرقية كانت أطول عمراً . وان الحضارة الاوربية القديمة التي وصفها بركلز في خطبته التي أشرنا اليها بادت كما باد غيرها ، وان الحضارة الاوربية الحديثة قريبة العهد لا يصح الحكم فيها وفي أجلها .

* * *

قال فرنسوا جيزو المؤرخ والسياسي الفرنسي ووزير الملك فيليب لويس جيزو هو واضع كتاب تاريخ الحضارة الاوربية . أن الحضارات الشرقية كانت مؤسسة على مبدأ واحد أو نظرية واحدة أي كل حضارة على نظرية ، وان اختلفت مبادىء الحضارات

والقارىء يرى في كلامه بعض ما يشعر إنها كلها على نظام واحد ونظرية واحدة ويقول ان الحضارة الاوربية مؤسسة على اختلاف المبادىء وتباين الاسس ، وتفاوت ، النزعات مما يؤدي الى يقظة العقول والنفوس ، والى الابتكار والتوليد والابتداع . وقال جون ستوارت ميل المفكر والفيلسوف الانجليزي في كتابه المسمى كتاب الحرية . إن الحرية التي تسمح باختلاف الافكار وحدها لا تكفي لتقويم الحضارة بل لا بدّ من الحرية التي تسمح باختلاف الطبائع والامزجة والنزعات النفسية وذكر أن تعاظم الحضارة الاوروبية إنما كان بسبب تلك الحرية التي تشبع الطبائع المختلفة . وان ركود الحضارات الشرقية كان بسبب فقدان تلك الحرية ومحاولة قهر الناس على طبع ومزاج واحد . فركدت النفوس والعقول وانقطع عهد الابتكار والابتداع وركدت الحياة عامة .

وعندي أن هذه الآراء قراءة للحقائق عكساً لا طرداً كمن يقرأ الكتاب من آخره كي يصل الى أوله وذلك للأسباب الآتية : —

(أولاً) إن الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ليست دائماً سبباً للقوى الحيوية في الحضارة، بل قد تكون نتيجتها . فالقوى الحيوية في الطبائع والأمزجة قد تسبب الحرية وتضمنها وتجعلها قضاء محتوماً بالرغم من قهر وكبت، وبالرغم من محاولة صب الناس في قالب واحد . وأن استبداد العادة الذي يحكي عنه جون ستوارت ميل في كتاب الحرية قد يكون نتيجة لضعف الطبائع والأمزجة مهما اختلفت . وأن الحكومات الاستبدادية وجدت في أوروبا كما وجدت في الشرق . وقد اعترف جون ستوارت ميل في كتابه إن الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ظهرت في أوروبا بسبب القوى الحيوية في النفوس حتى في عصور الرغم والقهر .

(ثانياً) إن شرط الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ليس خاصاً بالحضارة الأوروبية، فلو درس هؤلاء الكتاب الأفاضل الحضارات الشرقية أو العالمية في أبانها وجدوا أن حرية الطبائع والأمزجة موفورة حتى في عصور الاستبداد والقهر . فقد كانت موفورة في حضارة الأندلس العربية كما كانت موفورة في الحضارة العباسية في أعد عصور خلفاء العباسيين بأساً وقوة . ويكفي أن تقرأ كتب الأدب والعلوم العربية لتعرف إلى أي حد بلغت حرية الطبائع والأمزجة . تقرأ عن باحث خصص حياته لدراسة النمل وعاداته، وانه كان اذا تكلم في النمل قضى ساعات طوال لا يَمل ولا يُمل سامعه . وتقرأ عجائب ذلك وصف الولائم التي كانت تبلغ غاية الجنون فأي اختلاف في الطبائع والأمزجة أكثر من هذا الاختلاف .

(ثالثاً) إن عصر حرية الطبائع والأمزجة اللازمة لازدهار الحضارة . لابد من أن يسبقه عصر توحيد للقوى وهذا العصر السابق هو عصر قيام الدول ونشأتها ، وتأسيس بأسها وسطوتها ولولا هذا العصر الذي هو عصر الجماعة ويسود فيه مذهب الجماعة لا مذهب الفردية ما أمكن أن يكون بعده عصر الحرية الفردية، لأن العصر السابق عصر توحيد الجهود النفسية والفكرية، وعصر الغلبة الذي يجلب للأمة الاطمئنان إلى عصر الحرية الفردية اللاحق به . والحرية الفردية هي حرية اختلاف الطبائع والأمزجة .

(رابعاً) إن تلك الحرية الفردية كثيراً ما يعقبها عصر اضمحلال إذا بلغت الحرية الفردية غايتها وضعفت الطبائع والأمزجة وعندئذ لا يغني اختلاف الطبائع والأمزجة عن ضعفها، ولا يثمر ولا تزدهر الحضارة معه. وقد ينجي من ذلك الاضمحلال خطر خارجي دائم يضطر الشعب الى توحيد الجهود النفسية والفكرية اذا استطاع ولم تكن الطبائع والأمزجة قد ضعفت ضعفاً لا أمل معه . أما إذا كانت الطبائع قد ضعفت واضمحلت وصارت زعامتها

مصلحية فلا أمل في توحيد الجهود النفسية والفكرية بالرغم من كل محاولة وبالرغم من كل خطر خارجي دائم .

(خامساً) إن تعاقب عهود اندماج الفرد في الجماعة، وإطلاق الحرية للفرد الى أقصى حد مستطاع وغير مضر تعاقب يصلح الشعوب الانسانية ، وهو أمر مشاهد في التاريخ لأن اندماج الفرد في الجماعة كما أنه يوحد الجهود النفسية والفكرية ويمنع زيغ طبع الفرد ونزاجه كذلك قد يضعف طبع الفرد، وإذا ضعفت طباع الافراد ضعف طبع الجماعة . وإطلاق الحرية لطبع الفرد ونزاجه كما إنه يؤدي الى تقوية طبع الفرد ، والى استيعاب جميع مظاهر الحياة والى تشعب مسالك التفكر والمطلب الذي يؤدي الى ازدهار الحضارة، فإنه كذلك قد يؤدي إلى زيغ وضلال وشطط في الطبائع الفردية ، وقد يستهلك قواها . ومن أجل ذلك يتعاقب العهدان لما فيه خير الشعوب ، وقد يتعاقبان لما فيه ضررها ، إذا أتى مثلاً بعد عهد فوضى الطبائع الفردية عهد قهر مرهق من عهود اندماج الفرد في الجماعة فيقضي على البقية الباقية من قواها، فيكون الفساد حيث يراد الاصلاح بالقوة .

(سادساً) ينسى الكتّاب الأفاضل عند تعليل ركود الحضارات الشرقية في عهد ازدهار الحضارة الاوربية أموراً هامة منها : ان الحضارات الشرقية تسلمتها قبائل وشعوب لها طباع فاضلة ولكنها أقل استعداداً لتنمية الحضارة واعلائها من القبائل والشعوب التي تسلمت الحضارات الاوربية القديمة . وليس المراد الحكم على شعب أو قبيلة حكماً أبديًّا ، وإنما هو حكم الماضي من التاريخ . فالقبائل التيوتونية التي تسلمت الحضارة الاوربية القديمة كان عندها استعداد في ماضي تاريخها لتنمية الحضارة أكثر من استعداد قبائل التتر والمغول والأتراك التي تسلمت الحضارة الشرقية . ولا سيما أن الطبائع الفردية في الشرق انتابها عهد بعد عهد أضعف قوتها على اختلاف مصادر هذا الضعف وأسبابه .

ولا تنكر ان نظم الحياة والحكم التي نمت في أوربا قديماً وحديثاً والتي ورثها الشرق الآن بوراثته نظم الحكومات النيابية المنظمة، ربما كانت أدعى الى صيانة حرية الطبائع والأمزجة . التي يقول المفكرون إنها من أهم مقوّمات الحضارة . بل هي الصفة اللاصقة بالحضارة، والتي لا تكون إلاّ بها في نظرهم . وهذه النظم النيابية هي أيضاً نتيجة أكثر منها سبباً، أي إنها نتيجة القوى الحيوية في الطبائع والأمزجة والنفوس على أن هذه النظم في غير البيئة الصالحة لها ، قد تؤدي الى استبداد فئة قليلة من الأسر البيوروقراطية وأعوانها .

ع . شكري